البنية الاجتماعية في الإسلام وفق مطارحات السيد محمد باقر الصدر

المدرس المساعد
سعد جاسم لفتة الكعبي

مقدمة:

من أهم التطورات التي حصلت على صعيد الفكر الاجتماعي هي تحديد العنصر المنظور في بناء المجتمع، بحيث تدور جميع التشريعات في بعدها السياسي والاقتصادي مدار الحفاظ على مصالح ومنافع ذلك العنصر.

واختلفت المدارس في تحديد العنصر المقصود فالرأسمالية الليبرالية تبنت عنصراً والاشتراكية تبنت آخر، بينما طرحت المدرسة الإسلامية عنصراً أكثر شمولية منهما.

واعتمدنا مطارحات السيد محمد باقر الصدر في عرض الرؤية الإسلامية للركيزة الفكرية للمجتمع.

فانتظم البحث في ثلاثة مطالب، الأول منها تعرض لبيان الهدف من خلق النوع الإنساني بحسب العقيدة الإسلامية، وكان المطلب الثاني بياناً للمؤهلات التي يتمتع بها السيد محمد باقر الصدر التي مكنته من خوض غمار هذا المحور العلمي المهم والخطير في الوقت نفسه، وجاء المطلب الثالث لتتبلور فيه ثنائية البناء الاجتماعي ثنائية الفرد والأمة.

المطلب الأول: الهدف من خلق النوع الإنساني

الأقوال في تحديد الهدف:

صرّح القرآن الكريم أن الهدف من خلق الإنسان و صنوه الجن إنما هو العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، لكنّ المفسرين اختلفوا في أن هذا الغرض هل هو الغرض الأقصى أو هو غرض له غاية وغرض.

١- قال الشيخ الطوسي ﷺ (ت٤٦٠هـ): "هذا إخبار من الله تعالى أنه لم يخلق الجن والإنس إلاّ لعبادته، فإذا عبدوه استحقوا الثواب "[2] فاعتبر الغرض هو العبادة ويترتب على الغرض استحقاق الثواب.

٢- حين يرى الطبرسي ﷺ (٥٤٨هـ) أن الغرض هو تعريض الإنس والجن للثواب وهذا الغرض لا يحصل إلاّ بأداء العبادات، قال: ".... أي لم أخلق الجن والإنس إلاّ لعبادتي. والمعنى لعبادتهم إياي، عن الربيع. فإذا عبدوني استحقوا الثواب. وقيل: إلاّ لآمرهم وأنهاهم و أطلب منهم العبادة، عن مجاهد. واللام لام الغرض، والمراد: أن الغرض في خلقهم تعريضهم للثواب، وذلك لا يحصل إلاّ بأداء العبادة فصار كأنه سبحانه خلقهم للعبادة....."[٣].

٣- وذهب السيد الطباطبائي ﷺ إلى أن العبادة هي الغرض لخلقة الإنسان، نعم إذا كان للعبادة غرض وهدف فالعبادة غرض متوسط وغرضها غرض أقصى، قال ﷺ: "فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد إليه هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك، ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضا متوسطا "[٤]❖.

٤- وذهب الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - دام ظله - إلى أن الغرض الأقصى هو العبادة أما المعرفة والعلم والامتحان والاختبار فهي أهداف متوسطة، فبعد أن يستعرض مجموعة من الأغراض التي اشتملتها الآيات الكريمات ينتهي إلى نتيجة هي أن "بعضها هدف مقدمي وبعضها هدف متوسط وبعضها هدف نهائي وبعضها نتيجة"[٥]، قال: ".... ورد في القرآن تعابير كثيرة مختلفة في شأن خلق الإنسان والهدف منه، فنقرأ في إحدى آياته: "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملا " وهنا يبين مسألة الامتحان للإنسان وحسن العمل على أنه هدف (من أهداف خلق الإنسان) وجاء في آية أخرى " الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير و أن الله قد أحاط بكل شيء علما " وهنا يبين القرآن أن علمنا بعلم الله و قدرته هو الهدف من خلق السموات والأرض (وما بينهما).

ونقرأ في آية أخرى " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم " وطبقا لهاتين الآيتين فالهدف من خلق الإنسان هو رحمة الله.

والآيات محل البحث تستند إلى مسألة العبودية فحسب، وتعبر عنها بصراحة بأنها الهدف النهائي من خلق الجن والإنس.

وبقليل من التأمل في مفهوم هذه الآيات وما شابهها نرى انه لا تضاد ولا اختلاف بين هذه الآيات، ففي الحقيقة بعضها هدف مقدمي، وبعضها هدف متوسط، وبعضها هدف نهائي وبعضها نتيجة.

فالهدف الأصلي "العبودية" وهو ما أشير في هذه الآيات محل البحث، أما العلم والامتحان وأمثالهما فهي أهداف ضمن مسير العبودية لله، ورحمة الله الواسعة نتيجة العبودية لله وهكذا يتضح أننا خلقنا لعبادة الله " [٦].

وينتهي إلى أن العبودية بالمعنى الذي يذكره "هو الهدف النهائي من خلق البشر الذي أعد الله له الامتحان والاختبار لنيله ومنح الإنسان العلم والمعرفة وجعل نتيجة كل ذلك فيض رحمته للإنسان "

٥- وذهب السيد محمد الصدر - قدس سره - إلى أن الغرض هو العبادة، يقول:" إننا فهمنا من التاريخ السابق❖ من قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، فهمنا: أن الغرض الأساسي من خلق البشرية هو إيجاد العبادة الكاملة في ربوعها..."[٧].

وبالجملة فهنا نقطتان:

الأولى: بيان ما هو الغرض من خلق الإنسان.

الثانية: بيان المقصود من كلمة (العبادة) في الآية.

أما النقطة الأولى، فيتلخص فيها قولان:

١. إن العبادة هي الغرض من خلق الإنسان وهذا الغرض له آثار تترتب عليه، وهو رأي الشيخ الطوسي و السيد محمد الصدر و الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

٢. أن الغرض الأقصى هو ما يترتب على العبادة، أما العبادة فهي إما وسيلة - كما يظهر من عبارة الطبرسي - أوهي غرض ولكنه غرض متوسط كما هو صريح عبارة السيد الطباطبائي.

وأما النقطة الثانية: ففيها ثلاثة معانٍ:

١- العبادة الفردية التي تكون سبباً للحصول على الثواب.

٢- العبادة الكاملة بمعنى تضمن العبادة لكل المعاني الروحية من الإخلاص والتوجه والحضور والالتفات.

٣- العبادة الاجتماعية أي أن يكون المجتمع في كل سياساته وقوانينه متبعاً للتشريع الإلهي.

والرأي الثالث هو الراجح عندنا من بين المعاني الثلاث.

الخلاصة:

إن الغرض من الخلق والإيجاد هو سعادة المخلوقين - الجن والإنس - في الدنيا والآخرة، فسعادتهم في الدنيا تحصل باستيفائهم نِعَم الله تعالى التي أودعها في أرضه، وسعادتهم في الآخرة تحصل بقربهم من الله تعالى الذي يورثهم جنة الخلد، والسبيل لتحقيق هذا الغرض هو تطبيق أحكام الله تعالى وشريعته.

المطلب الثاني: محمد باقر الصدر.....سمات ومؤهلات

توطئة:

يحصل الإنسان على صفاته التي تميزه عن غيره وتعبّر عن هويته وتكون علةً وسبباً لسلوكه في المجتمع يحصل عليها عن طريق رافدين هما الوراثة والبيئة، وكلا النوعين يؤثر تأثيراً كبيراً في سيرة ودور الفرد نوعاً وسِعةً في المجتمع، وحاز السيد الشهيد من كلا الرافدين ما يجعله مستجمعا لصفات العالم المتفرّد الكامل.

وإننا عندما نتعرض لسمات ومؤهلات السيد الشهيد ليس الغرض هو التمجيد والإطراء - وإن كان السيد الشهيد يستحق منهما النصيب الأوفر - بل نتعرض لها لأمرين:

الأمر الأول:

معرفة العلاقة والنسبة بين توفر المؤهلات كماً ونوعاً وبين حجم الدور الذي يراد تجسيده على أرض الواقع، وتتفرع عن هذا الأمر فائدتان:

الفائدة الأولى:

إن الإنسان يعلم من نفسه مقدار ما يتوفر عنده من مؤهلات ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾(٨)

فيكون من السهل عليه تحديد الدور الذي يمكنه النجاح فيه.

الفائدة الثانية:

إذا عَرَفت الأسرة والمدرسة والمجتمع هذه العلاقة فإنها وبعد ملاحظة الأفراد ذوي المؤهلات المتميزة يمكنها ومن وقت مبكر توفير البيئة التي تسهم في تقديم يد العون لهؤلاء الأفراد مما ينتج نتائج كبيرة على مستوى الفرد والمجتمع.

الأمر الثاني: الملازمة بين مؤهلات الفرد والدور الذي يقوم به:

لّما كان الغرض الإلهي بالسعة والشمول الذي عرفنا فلا بد من توفر مؤهلات تتناسب مع تلك السعة وذلك الشمول وإلاّ كان الحديث عن الدور الإلهي مع فقدان تلك المواصفات بلا معنى.

وسيتّبع الباحث طرق متنوعة لمعرفة المؤهلات التي امتاز بها السيد الشهيد تفصيلا، لأننا نقطع بأن الجميع يعلم إجمالاً حجم السيد محمد باقر الصدر علماً وفكراً وجهاداً، وهذه الطرق هي:

١- ما ذُكر من سمات ومؤهلات على لسان العلماء من الحوزة العلمية الشريفة.

٢- ما ذُكر من سمات ومؤهلات على لسان الكتّاب والباحثين.

٣- عرض مواقف مختلفة من سيرته الشريفة واستنتاج السمات التي تكشف عنها تلك المواقف.

وهذا التنوّع من شأنه إعطاء تلك النتائج سمة الدقة مما يبعد عنها احتمال عدم الموضوعية.

أولاً: ما ذُكر من سمات و مؤهلات على لسان العلماء من الحوزة العلمية الشريفة:

يقول السيد كاظم الحائري في هذا المجال:

"تتميز الأبحاث العلمية لأستاذنا الشهيد عن سائر الأبحاث العلمية المألوفة بالدقة الفائقة والعمق الذي يقل نظيره من ناحية، وبالسعة والشمول لكل جوانب المسألة المبحوث عنها من ناحية أخرى، حتى أن الباحث الجديد لها قلّ ما يحصل على منفذ للتوسع أو التعميق

الزائدين على ما أتى به الأستاذ.

إضافة إلى كل هذا نرى من مميزات أستاذنا العلمية أن أبحاثه لم تقتصر على ما تعارفت عليه أبحاث العلماء في النجف الأشرف وقتئذ من الفقه والأصول، بل شملت المواقف الفكرية الإسلامية كالفلسفة والاقتصاد والمنطق والأخلاق والتاريخ وفي كل مجال من هذه المجالات ترى بحثه مشتملا على نفس الامتيازين الملحوظين في أبحاثه الأصولية والفقهية من العمق والشمول."[٩].

ويشير هذا النص إلى ثلاث سمات هي:

- الدقة الفائقة.
- العمق العلمي.
- السعة و الشمول.

ويقول السيد محمود الهاشمي في هذا المجال:

"والحقيقة إنّ استيعاب عظمة هذا العالم الرباني العامل لا يتيسر لأحد في مثل هذه الدراسة العاجلة ولكن ذلك لا يعفينا من التعرض لأبرز معالم مدرسته العلمية والفكرية التي أنشأها..... وفيما يلي أهم مميزات هذه المدرسة.....

- الشمول والموسوعية: اشتملت مدرسة شهيدنا الراحل على معالجة كافة شعب المعرفة الإسلامية والإنسانية فهي متعددة الأبعاد والجوانب، ولم تقتصر على الاختصاص بعلوم الشريعة الإسلامية من الفقه والأصول فحسب.
- الاستيعاب والإحاطة: من النقاط ذات الأهمية الفائقة في اتصاف النظرية، أية نظرية، بالمتانة والصحة مدى ما تستوعبه من احتمالات متعددة، وما تعالجه من جهات شتى مرتبطة بموضوع البحث..... وهذه الميزة أيضا كان يتمتع بها فكر السيد الشهيد قدس سره بدرجة عالية فإنه لم يكن يتعرض لمسألة من المسائل العلمية سيما في الأصول والفقه، إلاّ ويذكر فيها من الصور والمحتملات ما يبهر العقول.
- الإبداع والتجديد:..... وقد كان سيدنا الشهيد قدس سره يتمتع في هذا المجال بقدرة

فائقة على التجديد وتطوير ما كان يتناوله من العلوم والنظريات سواء على صعيد المعطيات، أو في الطريقة والاستنتاج.

- المنهجية والتنسيق: ومن معالم فكر سيدنا الشهيد منهجيته الفنية الفريدة والمتماسكة..... فتراه يفرز الجهات والجوانب المتداخلة والمتشابكة في كلمات الآخرين، خصوصاً في المسائل المعقدة، التي تعسر على الفهم ويكثر فيها الالتباس والخلط.....
- النزعة المنطقية والوجدانية: ومن معالم فكر سيدنا الشهيد نزعته المنطقية و البرهانية في التفكير والطرح في الوقت الذي كانت تلك المعطيات البرهانية تنسجم وتتطابق مع الوجدان وتحتوي على درجة كبيرة من قوة الإقناع وتحصيل الاطمئنان النفسي بالفكرة...
- الذوق الفني والإحساس العقلائي: الذوق حاسة ذاتية في الإنسان يدرك على أساسها جمال الأمور وتناسقها. والذهنية العقلائية هي الأخرى التي يدرك بها الإنسان الطباع والأوضاع والمرتكزات التي ينشأ عليها العرف والعقلاء، ويبني على أساس منها الكثير من النظريات والأفكار في مجال البحوث المختلفة كالدراسات التشريعية والقانونية والأدبية وهي في الأعم الأغلب مجالات للبحث لا يمكن إخضاعها للبراهين المنطقية أو الرياضية أو التجريبية، وإنما تحتاج إلى حاسة الذوق الفني والذهنية العقلائية والحس العرفي الأدبي.....فأبدع (السيد الشهيد) نهجاً فقهياً موضوعياً في مجال الاستظهار الفقهي خرجت على أساسه الاستظهارات من مجرد مدعيات ومصادرات ذاتية إلى مدعيات ونظريات يمكن تحصيل الإقناع والاقتناع فيها على أسس موضوعية.."[١٠].

ما ذكر من سمات ومؤهلات على لسان الكتاب والباحثين:

يقول نزيه الحسن عند ذكر السمات للسيد الشهيد نذكر بعضها[١١]:

- التكامل ويعني بها جميع الجوانب العلمية.
- الأصالة ويذكر لها جانبين، طرح مسائل لم تكن معروفة من قبل أو معالجة مواضيع طرحت من قبل وكان له فيها وجهة نظر مستقلة عما عداها.

- الخلق العلمي.
- ملكة النقد والتحقيق.
- الوضوح المنهجي.

ويقول الأستاذ زكي الميلاد في حديثه عن السيد الشهيد:

"ما أريد التوصل إليه هو أن كتابات السيد الصدر لم تكن تستند على تراكمات معرفية سابقة عليه تعكس تنامي تلك العلوم و تطورها في نطاق الكتابات العربية والإسلامية، وإنما هي تأسيسات و اجتهادات وابتكارات لا تحسب إلاّ إلى صاحبها ومؤلفها، وهذا من أكثر ما يميز هذا العطاء الفكري ويلفت النظر إليه...."[١٢]، السمة المهمة التي تحددها هذه الفقرة هي:

- التأسيس والابتكار.

مواقف واستنتاجات:

الموقف الأول:

بعد أن تتعدد الاقتراحات حول مستقبله، هل يسلك طريق الحوزة وهو طريق ذات الشوكة، أو يسلك طريق المدارس الحكومية وهو طريق الحياة الناعمة هنا يتجلى موقفٌ فيه صلابة الجبال وسكون الليل، لم يختر طريق المناقشة وإقناع الآخرين بالكلام بل عبّر عن رأيه عمليا فاقتصر من طعامه على القليل وبعد أن يُسأل عن السبب يقول بهدوء: "إن الذي يستطيع أن يعيش على قطعة من الخبز أياما عديدة قادرٌ على أن يستمر إلى آخر العمر كذلك، فأنا لا أخشى من الفقر و لا أخاف من الجوع"[١٣].

يتحدث هو ﷺ عن ذلك فيقول: "إن المرحوم السيد محمد الصدر - رئيس وزراء العراق آنذاك - كان يصطحبني معه إلى مزرعته خارج بغداد على ظهر جواد له فكان يمنيني بمنصب كبير في الدولة وبحياة ناعمة مرفهة إن أنا واصلت دراستي في المدارس الحكومية، فقلت له: إن حياة الحوزة والدراسة فيها هي خياري الوحيد، وإن قناعتي في ذلك تامة رغم حاجتي للمال"[١٤].

بعد ملاحظة عمره الصغير - وإن كان يتحدث بلغة الكبار - تأخذ الصفات معنىً أكثر

عمقاً و أفقاً أوسع، يعكس هذا الموقف عدة صفات:

١- حسن الاختيار، لاسيما مع ضغط الفقر وإغراء المال.

٢- قوة الإرادة وعدم التردد في تنفيذ قراراته.

٣- التعبير عن رأيه بالأسلوب المناسب المؤثر.

الموقف الثاني:

يتحدّث الأستاذ محمد علي الخليلي - الذي كان زميلا للسيد الشهيد في الدراسة - عن موقف كان يتكرر في المدرسة وهو التفاف التلاميذ من أقران السيد الشهيد حوله فيحدثهم وهم منصتون إليه، وطالما رغب - الأستاذ الخليلي - هو وأقرانه الانضمام إلى هذه الحلقة ولكن فارق السن كان يمنعهم حيث كانوا في المرحلة النهائية والسيد الشهيد في المرحلة الثالثة، ولكن سرعان ما كسروا هذا الحاجز وانضموا إلى (الحوزة) وكان هذا اسم حلقة السيد - الصغير - محمد باقر الصدر[١٥].

يقول الأستاذ الخليلي: "..... وبعدها راح يواصل حديثه، حديث لم نألفه من قبل، فلا* هو توضيح وشرح لما نأخذ من دروس عن أساتذتنا، فقد كان حديثاً تتخلله عبارات هي بالنسبة لنا غير مفهومة أو صعب فهمها، ولأول مرة سمعنا فيها كلمة (الماركسية) و(الإمبريالية) و(الديالكتيكية) و(الانتهازية) وكلمات أخرى..... لقد حملنا شوقنا إلى المعرفة أن نكرر انضمامنا إلى مجموعته التي أُطلق عليها اسم - الحوزة -....."[١٦]

إذن كان السيد الشهيد سابقا لعمره في فهمه وهمومه وتفكيره بينما الصغار يفكرون في اللعب ويبحثون عنه تجده يجول بين النظريات التي تفسر الكون والعلاقات بين المجتمع، وهذا ما يؤكده أحد معلميه، يقول: " وقد كان طفلاً يحمل أحلام الرجال و يتحلى بوقار الشيوخ...."[١٧].

أما مدى صحة ودقة معلوماته عن هذه النظريات، هذا ما يؤكده أحد أساتذته، فقد طلب السيد الشهيد منه مصادرَ تتحدث عن الماركسية وبعد تردد وخوف عليه لبّى طلبه ببعض المجلات والكتب المبسطة ليعود بعد ذلك طالبا كتباً أكثر موضوعية وأعمق شرحاً وعرضاً لآراء الماركسية فهيّأ له ما طلب، يقول ذلك الأستاذ:"...أحببت أن أعرف ما الذي

استفاده* هذا الطفل من قراءته لهذه الكتب وإذا به يدخل في شرح الماركسية طولاً وعرضاً، فأخذت عن شرحه لها كل ما غمض علي معناه عند قراءتي لها، فعجبت لهذا الطفل المعجزة وهو لّما يزل في المرحلة الثالثة من الدراسة الابتدائية وقد زاد اطمئناني عندما راح يشرح لي أنه كان يأتي على مناقشة كل رأي على حدة مناقشة العالم المتبحر في العلم فاطمأننت بأنه لم يتأثر بالماركسية مطلقا، وأنه كان يقرؤها كناقد لا كدارس لها."[١٨].

الموقف الثالث:

عندما كان السيد الشهيد يحضر درس البحث الخارج* للشيخ محمد رضا آل ياسين - وكان الشيخ يظن أن حضوره تشريفي - طلب من تلامذته أن يبينوا الثمرة و الفرق بين قولين ("..... قال الشيخ - ﷺ - إن أستاذنا المرحوم السيد إسماعيل الصدر حينما انتهى بحثه إلى هذه المسألة طلب من تلامذته أن يكتشفوا ثمرة الفرق بين القولين، فبينا له ثمرة الفرق بين القولين، وأنا أطلب منكم اكتشاف الثمرة والإتيان بها في بحث اليوم التالي.

وفي اليوم التالي حضر شهيدنا الصدر قبل الآخرين وقال للشيخ: إني جئت بثمرة الفرق بين القولين وذكر الثمرة، مما أثار إعجاب الشيخ ﷺ وقال له: أعد بيان الثمرة لدى حضور باقي الطلاب فلما حضروا طالبهم الشيخ آل ياسين فلم يتكلم منهم أحد....")[١٩].

من هذا الموقف نستكشف صفات:

١- الثقة بالنفس.
٢- الشجاعة العلمية.

وكمحصلة نهائية وبمراجعة هذه الآراء والمواقف وغيرها نجد أنها تفضي إلى أن الجميع متفقون على توفر مجموعة من السمات والمؤهلات عند السيد الشهيد تؤهله لأن يؤدي دوراً واسعاً ومهماً على الساحة الإسلامية و في أكثر من اتجاه.

ومن أهم هذه الاتجاهات بيان أن الدين الإسلامي هو القانون الكامل والوحيد الذي من شأنه أن يعالج جميع مشاكل الإنسانية ويضمن لها السعادة في الدنيا والآخرة.

أقول:

إن استيفاء مؤهلات وسمات السيد الشهيد لا يحصل إلاّ بوصفه بالعبقرية، العبقرية بمعناها

الاصطلاحي وهو: ما يذكره هلهان وكوفمان: "أن مصطلح العبقرية على الأعم الأغلب قد استخدم للإشارة إلى القوى العقلية الغاية في الندرة كدرجة الذكاء المرتفعة جداً، أو الإبداع العالي جداً أو الموهبة العالية جداً، فالعبقري مبدع موهوب وذو تحصيل عالٍ في المجال الذي تظهر فيه عبقريته، وعُرفت العبقرية بأنها أعلى ما تقيسه اختبارات الذكاء، وعُرفت العبقرية أيضاً: بأنها قوة فكرية فطرية من نمط رفيع كتلك التي تعزى إلى من يُعتبرون أعظم المشتغلين في فرع من فروع الفن أو التأمل أو التطبيق. طاقة فطرية وغير عادية، وذات علاقة بالإبداع التخيلي أو الفكر الأصيل أو الابتكار، والاكتشاف، وهي تختلف عن الموهبة...."[٢٠].

المطلب الثالث: الإشكالية الاجتماعية والحل الإسلامي

توطئة:

مرّ سابقاً أن الغرض من خلق الإنسان هو سعادة الإنسان نفسه في الدنيا والآخرة، ومرّ كذلك أن اختيار الإنسان يلعب دوراً مهمّاً في تحقيق هذا الغرض أو عدم تحقيقه ولهذا أضاف الله تعالى عاملاً آخر يساعد الإنسان على معرفة الخيار الصحيح وهم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والعلماء (رضوان الله عليهم).

وبسبب طبيعة الحياة في هذا العالم واجهت البشرية ومنذ البداية ألواناً مختلفةً من المشاكل وقفت عائقاً أمام تلك السعادة، وأهم تلك المشاكل هي كيفية تنظيم العلاقات بين أبنائها أفراداً ومجتمعات وهو ما يسمى بالنظام الاجتماعي، ورفعاً لتلك العوائق تطرح البشرية على لسان أبنائها أكمل ما تتصوره من حلول هذا على مستوى التفكير غير الديني، أما التفكير الديني فيتجلى فيه دور الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ومن يمثل امتدادهم - وهم العلماء - في عرض الحل الإلهي الكامل.

وشهد تاريخنا المعاصر وصول المشكلة الاجتماعية ذروتها وتشعبت حتى وصلت آثارها إلى أدق التفاصيل في الحياة اليومية، لذا فلا بد للحل أن يستوعب جميع التفاصيل التي ترتبط بالنظام الاجتماعية مُعطياً أجوبةً شاملةً لكل تلك التفاصيل.

وانقسمت الحلول بحسب منطلقاتها إلى حلول دينية وغير دينية، فطرح الفكر غير الديني تجارب كان أهمها الديمقراطية الرأسمالية والماركسية، بينما تنوّعت الحلول الدينية الإسلامية بتنوّع المدارس والاجتهادات كلٌ حسبما أوقفه عليه الدليل من حل فكان العلماء

- بحق - أماناً لأهل الأرض كما النجوم أمان لأهل السماء وبذلك أثبتوا حقّانيتهم في وراثة سلسلة النور والشرف سلسلة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وبيان هذا التنوّع يُخرج هذه السطور عن حد اختصارها.

إن مواجهة أي إشكالية ومحاولة حلها لابد أن يسير على منهج علمي مخطط له وقد التزمنا أن تكون المعالجة للإشكالية المجتمعية وفق مطارحات السيد محمد باقر الصدر الذي كان بحق أحد الأفذاذ الذين أنجبتهم هذه الأرض المقدسة لينمو فرعاً ويورق غصناً ويُثمر شجرةً مباركةً أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها، عَلَمُنا: هو السيد محمد باقر بن السيد حيدر بن السيد إسماعيل بن السيد صدر الدين الموسوي، ولد في الكاظمية يوم ٢٥ ذي القعدة عام ١٣٥٣هـ الموافق ١٩٣٤م[٢١].

وانقسم الكلام على ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: تحديد الهدف والمنهج.

النقطة الثانية: حل المشكلة على المستوى الداخلي للأمة الإسلامية.

النقطة الثالثة: حل المشكلة على المستوى العام والعالمي.

النقطة الأولى: تحديد الهدف والمنهج:

لابد لكل حركة من وضوح الهدف منها ووضوح المنهج الذي تسير عليه من أجل تحقيق ذلك الهدف فكان هدف السيد الشهيد إعطاء حل من منظور إسلامي يعالج المشكلة في بعديها الداخلي والخارجي.

وبما أننا نتحدث عن حل إسلامي فلابد من أن يكون منهجه منهجاً إسلامياً بمعنى أن يكون مأخوذاً من مصادر الإسلام وهي القرآن الكريم والسنة الشريفة وهو ما دأب عليه العلماء عند معالجة أية مسألة سواء كانت فقهية أو اقتصادية أو غيرها، ودرج السيد محمد باقر على ما سار عليه السلف - قدس الله أسرارهم - ولكنه تبنى أسلوباً جديداً في الرجوع إلى القرآن والسنة وهو ما سمّاه التفسير الموضوعي، يقول السيد محمد باقر الصدر في بيان معنى كلمة الموضوعية: "ولا نقصد بالموضوعية هنا الموضوعية مقابل التحيّز، مثلاً: ما يقال عادة من أن هذا البحث موضوعي في مقابل أن يكون بحثاً متحيّزاً أو منحازاً. طبعا

الموضوعية بذلك المعنى مفروضة في التفسير التجزيئي والتفسير الموضوعي معاً.... وإنما الموضوعية التي نجعلها في مقابل التجزيئية غير تلك الموضوعية التي تقابل الذاتية والتحيّز، الموضوعية هنا بمعنى أن يبدأ من الموضوع وينتهي إلى القرآن، هذا الأمر الأول. الأمر الثاني أن يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد يقوم بعملية توحيد بين مدلولاتها، من أجل أن يستخرج نظرية قرآنية شاملة بالنسبة إلى ذلك الموضوع."(٢٢).

ولبيان الموضوعية كمنهج للتفسير يقول السيد محمد باقر الصدر- في معرض بيان الفرق بين التفسيرين -:"..... أن المفسّر التجزيئي دوره في التفسير على الأغلب سلبي، فهو يبدأ بتناول النص القرآني المحدد آية مثلا أو مقطعاً قرآنياً دون أيّ افتراضات أو طروحات مسبقة، ويحاول أن يحدد المدلول القرآني على ضوء ما يسعفه به اللفظ مع ما يتاح له من القرائن المتصلة و المنفصلة. العملية في طابع عملية تفسير نص معين، وكأن دور النص فيها دور المتحدث ودور المفسر هو الإصغاء والتفهم، وهذا ما نسميه بالدور السلبي..... وخلافاً لذلك المفسر التوحيدي و الموضوعي فإنه لا يبدأ عمله من النص، بل من واقع الحياة، يركز نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدمه الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني، لا ليتخذ من نفسه بالنسبة إلى النص دور المستمع والمسجل فحسب، بل ليطرح بين يدي النص موضوعاً جاهزا مشربا بعدد كبير من الأفكار والمواقف البشرية ويبدأ مع النص القرآني حوارا، سؤالا وجوابا، المفسر يسأل والقرآن يجيب، المفسر على ضوء الحصيلة التي استطاع أن يجمعها من خلال التجارب البشرية الناقصة، من خلال أعمال الخطأ والصواب التي مارسها المفكرون على الأرض..... ثم ينفصل عن هذه الحصيلة ليأتي ويجلس بين يدي القرآن الكريم، لا يجلس ساكتا ليستمع فقط بل يجلس محاورا..... وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح والنظرية التي بإمكانه أن يستلهمها من النص من خلال مقارنة هذا النص بما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفكار واتجاهات"(٢٣).

ومن جهة أخرى يبين السيد الشهيد أهمية هذا التفسير لأنه الطريق الوحيد للحصول على النظريات الإسلامية، قال قدس سره:".....هذا هو الطريق الوحيد للحصول على

النظريات الأساسية للإسلام وللقرآن تجاه موضوعات الحياة المختلفة "[٢٤].

ومن جهة ثالثة يبين قدس سره ضرورة هذا التفسير لاحتياج الفكر الإسلامي لتأسيس النظريات من خلال الإرث الكبير للنصوص الإسلامية، قال قدس سره: "فإذن تكون الحاجة إلى النظريات - يعني الحاجة إلى دراسة لنظريات القرآن والإسلام - تكون حاجة حقيقية ملحة خصوصا مع بروز نظريات عديدة من خلال التفاعل بين إنسان العالم الإسلامي و إنسان العالم الغربي بكل ما يمتلك من رصيد عظيم ومن ثقافة متنوعة في مختلف مجالات المعرفة البشرية. حينما وقع هذا التفاعل بين إنسان العالم الإسلامي وإنسان العالم الغربي وجد الإنسان المسلم نفسه أمام نظريات كثيرة في مختلف مجالات الحياة، فكان لا بد لكي يحدد موقف الإسلام من هذه النظريات، كان لابد وأن يستنطق نصوص الإسلام، لابد وأن يتوغل في أعماق هذه النصوص لكي يصل إلى مواقف الإسلام الحقيقية سلبا وإيجابا، لكي يكتشف نظريات الإسلام التي تعالج نفس هذه المواضيع التي عالجتها التجارب البشرية الذكية في مختلف مجالات الحياة"[٢٥].

ومن الواضح جداً أن الذي يتخذ هذا الأسلوب منهجاً في التعامل مع القرآن الكريم فإنه يكون هو منهجه مع السنة الشريفة لاتحاد الغرض والهدف.

النقطة الثانية: حل المشكلة على المستوى الداخلي:

إن الوضع الداخلي للأمة الإسلامية مما له ارتباط بمسألة حل المشكلة الإنسانية وذلك لأن الحل وفق المنظور الإسلامي لا بد أن ينبثق عن الأسس والمفاهيم التي تؤمن بها هذه الأمة لذا تقع على عاتق الأمة الإسلامية مسؤوليتان:

الأولى: بلورة الحل بما يتناسب مع مستوى المشكلة المعاصر.

الثانية: البرهنة على إمكان تطبيق هذا الحل على المستوى العملي.

وحتى تقوم الأمة بهاتين المسؤوليتين فلا بد أن تكون أمةً واعيةً لدورها مدركةً لخطورته، وحتى تصل الأمة لهذا المستوى من الوعي لابد من نهضة فكرية تمثل فهماً صافياً وتطبيقاً صادقاً للقرآن الكريم والسنة الشريفة وهذا لا يتم إلاّ على يد العلماء الذين عرفنا أنهم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

والجزء الذي يمثل دور العلماء تتضمنه المسؤولية الأولى ويكون على نقطتين:

النقطة الأولى: تقييم الواقع العملي للأمة بما فيه امتلاك الأمة "للمبدأ الصالح " ومقدار ما تعيشه الأمة من تفاعل واندماج مع ذلك المبدأ.

النقطة الثانية: إعطاء الحلول وممارستها لمعالجة الخلل الحاصل في جسد الأمة الفكري.

وعلى مستوى النقطة الأولى عرض السيد الشهيد شرط نهضة الأمة وبيّن عناصر ذلك الشرط وما هي العناصر المتوفرة وغير المتوفرة في الأمة، قال ﷺ:

"إن الشرط الأساسي لنهضة الأمة - أي أمة كانت - أن يتوفر لديها المبدأ الصالح الذي يحدد لها أهدافها وغاياتها، ويضع لها مثلها العليا، ويرسم اتجاهها في الحياة..."(٢٦)، أما عناصر هذا المبدأ فيقول ﷺ:" ونحن نعني بتوفر المبدأ الصالح في الأمة وجود المبدأ الصحيح أولاً، وفهم الأمة له ثانياً، وإيمانها به ثالثاً، فإذا استجمعت الأمة هذه العناصر الثلاثة فكان لديها مبدأ صحيح تفهمه وتؤمن به أصبح بإمكانها أن تحقق لنفسها نهضة حقيقية، وأن توجد التغيير الشامل الكامل في حياتها على أساس ذلك المبدأ....."(٢٧).

إذن العناصر التي حددها السيد الشهيد لنهضة الأمة هي:

١- وجود المبدأ الصحيح.

٢- فهم الأمة لذلك المبدأ.

٣- إيمان الأمة بذلك المبدأ.

وفي مقام بيان ما توفر منها وما لم يتوفر يقول السيد الشهيد إن فهم الأمة للإسلام هو العنصر الوحيد الذي تفتقده الأمة الإسلامية، قال ﷺ" وأمتنا الإسلامية الكريمة لا تفقد في الحقيقة من عناصر الشرط الأساسي لنهضتها البنّاءة إلاّ واحداً منها، فالمبدأ موجود لديها متمثل في دينها الإسلامي العظيم..... والأمة مجمعةً على الإيمان بهذا المبدأ وتقديسه ديناً وعقيدة، غير أن هذا الإيمان ضعيف في الغالب ومحدود لدى الكثير من الأشخاص، وأكبر سبب في ذلك عدم امتلاك الأمة بصورة عامة وغالبية العنصر الثالث وهو فهم المبدأ....."(٢٨).

إذن العائق لنهضة الأمة - بنظر السيد الشهيد - هو عدم فهم الأمة للإسلام، قال "فأصبحت (الأمة) لا تفهم الإسلام فهماً صحيحاً كاملاً بالرغم من أنها ظلت باقيةً على إيمانها به."[٢٩]

وقد عزى السيد الشهيد فقدان هذا العنصر إلى أعداء الدين الإسلامي قال:" فقد استعمل الغزاة الآثمون كل الطرق والأساليب للقضاء على وعي الإسلام من ذهنية الأمة وحجب أضوائه وأنواره عنها بما نثروه هنا وهناك من مفاهيمهم وأفكارهم وتشويهاتهم للإسلام المشرق العظيم."[٣٠]، ومواجهة السيد الشهيد لتلك المفاهيم والأفكار ما سنتعرض له في المطلب الثالث.

وعلى مستوى النقطة الثانية فمعالجة هذا الداء يكون بحركة فكريةٍ شاملةٍ حاول السيد الشهيد إيجاد جزءٍ منها، قال ﷺ:"وليست هذه (الأضواء)❖ إلاّ إشعاعة من نور الإسلام الوهّاج حاولنا أن تنير للأمة وتكشف عن شيءٍ من كنوز الإسلام، أو تعكس أنواره على ما يتماوج به واقع الأمة من أفكار وأحداث، وهي جزء من حركة فكرية شاملة ندعو❖❖ المصلحين والقادة الإسلاميين إلى إيجادها والتوفر على تنميتها وتغذيتها لتعرف الأمة طريقها السوي، وتفهم كيف تفتح الدنيا بالمفتاح الإلهي الذي أهملته طوال هذه السنين."[٣١]

ومن جهة أخرى طرح السيد الشهيد المفاهيم الإسلامية بمستوى متوسط سمّاه المستوى المدرسي، قال ﷺ: "لاحظنا مدى التفاوت بين الفكر الإسلامي في مستواه العالي وواقع الفكر الذي نعيشه في بلادنا بوجه عام..... وهنا نشأت فكرة ((المدرسة الإسلامية)) أي محاولة إعطاء الفكر الإسلامي في مستوى مدرسي ضمن حلقات متسلسلة....."[٣٢].

وحدد السيد الشهيد خصائص لهذا الطرح هي:

١- إن الغرض المباشر من المدرسة الإسلامية الإقناع أكثر من الإبداع.

٢- لا تتقيد المدرسة الإسلامية بالصيغة البرهانية للفكرة دائما.

٣- تعالج المدرسة الإسلامية نطاقا فكريا أوسع فهي لا تقتصر على الجوانب الرئيسية في الهيكل الإسلامي العام وإنما تتناول أيضا النواحي الجانبية من التفكير الإسلامي[٣٣].

ومن جهة أخرى وعلى المستوى الحوزوي قام بعدة خطوات منها كتابة الرسالة العملية بلغة ميسرة يسهل على المكلف مراجعتها وسماها (الفتاوى الواضحة) بالإضافة إلى منهجية جديدة في عرض الأبواب الفقهية ، وعلى الصعيد نفسه بدأ مشروع تطوير المناهج الحوزوية بما يتلاءم مع أهداف هذه الدراسة وواقع المجتمع الإسلامي، وبحثنا الرئيس يدور حول مفردة من مفردات هذا التطوير.

أما المسؤولية الثانية فيقع جزؤها الأكبر على عاتق الأمة بما تمثله من تلاحم مع الحلول التي يطرحها العلماء، وبيان كيفية تحقيق ذلك التلاحم وطرق تجسيده يُخرج البحث عن محل الكلام.

النقطة الثالثة: حل الإشكالية على المستوى العالمي.

بعد تراجع الأمة الإسلامية عن دورها القيادي في العالم بعد سقوط الدولة العباسية وبعد أن صارت الكنيسة لعنةً على من يرتبط بها ويرفع شعارها بعد الثورة الصناعية في أوربا، بعد هاتين المرحلتين أصبحت الإنسانية تفزع إلى ما يمكن للعقل والتجربة البشريين أن يصل إليه ويدركه من أجل حل مشاكلها، ولّما أدركت الإنسانية الحاجة المتزايدة إلى إيجاد قوانين وأنظمة أكفأ مما موجود بسبب نمو هذه المجتمعات من جهة و بسبب تطور وسائل الاتصال مما قرّب بين المجتمعات من جهة أخرى حاولت الإنسانية وبالآلية البشرية - التجربة - أن تصوغ تلك الأنظمة التي تضمن لها الاستقرار والسعادة فظهرت العديد من الأنظمة أهمها الديمقراطية الرأسمالية والاشتراكية.

وفي هذه الظروف من تأخر الأمة الإسلامية بين شعوب العالم من جهة ومن الانطباع السلبي لتلك الشعوب عن الفكر الديني من جهة أخرى فإن طرح حلٍ للمشكلة الإنسانية من المنظور الديني الإسلامي بما فيه من إنكار ورفض للأنظمة التي تعيش تلك الشعوب تحت كنفها يواجه هذا الحل جملةً من العقبات تكاد تكون مستحيلة الاجتياز إلاّ بحبلٍ من الله القوي القدير، فهذا الطرح يمثل ثورةً ضد الكثير من المسلّمات الفكرية عند تلك الشعوب فيحتاج - الطرح - إلى عمق فكري وإيمان بالإسلام وما لديه من معطيات قادرة على توفير النظام الأصلح لخير البشرية.

خاض السيد محمد باقر الصدر غمار هذا الميدان فكان فارسه الأول، فعرض الأساس

الفكري الذي تبتني عليه تلك الأنظمة وهو التجربة وإنكار قيمة المعرفة العقلية ومبيناً الخطأ في اعتماد التجربة كوسيلة وحيدة للمعرفة، وقد وضّح السيد الشهيد الدليل الفلسفي للفكر الإسلامي لإثبات قيمة الإدراك العقلي إلى جانب الطريقة التجريبية في الاستنتاج مشيراً إلى تمايز الميدان العقلي والميدان التجريبي في الساحة المعرفية وأن الخطأ الأول الذي ارتكبته الفلسفات المادية هو إلغاء الطريق العقلي والاكتفاء بالأسلوب التجريبي كطريق علمي للحصول على النتائج.

تنوع الأساليب في حل الإشكالية:

وقد سار السيد الشهيد من أجل تحقيق غرضه باتجاهين:

الأول: عرض رؤية عامة عن الكون والحياة مبدأها ومنتهاها وقيمة المعرفة العقلية وهو ما تضمنه كتاب (فلسفتنا).

الثاني: إبراز المذهب الاقتصادي الإسلامي بشكله الكامل والرصين لمقارنته بنظائره في الأنظمة الأخرى لقيام تلك الأنظمة على الركيزة الاقتصادية وهو ما تضمنه كتاب (اقتصادنا).

وسيقتصر البحث على العرض الإجمالي لدور السيد الشهيد في مواجهة الفكر المادي بشكليه الرأسمالي والاشتراكي عبر جهتين:

الجهة الأولى: عرض الحلول المادية ونقدها.

الجهة الثانية: عرض الحل الإلهي وفق الرؤية الإسلامية.

الجهة الأولى: النظام الرأسمالي، ماهيته، عيوبه، أسباب نشوئه، نتائجه السيئة.

ماهية الديمقراطية الرأسمالية :

قال قدس سره "وقد قامت الديمقراطية الرأسمالية: على الإيمان بالفرد إيماناً لا حد له، وبأن مصالحه الخاصة بنفسها تكفل - بصورة طبيعية - مصلحة المجتمع في مختلف الميادين، وإن فكرة الدولة إنما تستهدف حماية الأفراد ومصالحهم الخاصة، فلا يجوز لها أن تتعدى حدود هذا الهدف في نشاطها ومجالات عملها."[٣٤] فالفرد ومصالحه هو الذي يحدد الأسس العامة

التي تقوم عليها ثقافة ذلك المجتمع كما يعبر عن توجهات الدولة في قوانينها وعلاقاتها.

ويلخص السيد الشهيد هذا النظام فيقول: "يتلخص النظام الديمقراطي الرأسمالي في إعلان الحريات الأربع: السياسية، والاقتصادية، والفكرية، والشخصية.

فالحرية السياسية تجعل لكل فرد كلاما مسموعا ورأيا محترما في تقرير الحياة العامة للأمة ووضع خططها ورسم قوانينها وتعيين السلطات القائمة لحمايتها.... والحرية الاقتصادية ترتكز على الإيمان بالاقتصاد الحر الذي قامت عليه سياسة الباب المفتوح، وتقرّر فتح جميع الأبواب وتهيئة كل الميادين أمام المواطن في المجال الاقتصادي، فيباح التملّك للاستهلاك وللإنتاج معاً، وتباح هذه الملكية الإنتاجية التي يتكوّن منها رأس المال من غير حد و تقييد، وللجميع على حد سواء. فلكل فرد مطلق الحرية في إنتاج❖ أي أسلوب وسلوك أي طريق لكسب الثروة وتضخيمها ومضاعفتها على ضوء مصالحه ومنافعه الشخصية.

والحرية الفكرية تعني أن يعيش الناس أحراراً في عقائدهم وأفكارهم يفكرون حسب ما يتراءى لهم ويحلو لعقولهم..... وليست الحرية الدينية - في رأي الرأسمالية التي تنادي بها - إلاّ تعبيراً عن الحرية الفكرية في جانبها العقائدي.

والحرية الشخصية تعبر عن تحرر الإنسان في سلوكه الخاص من مختلف ألوان الضغط والتحديد فهو يملك إرادته وتطويرها وفقاً لرغباته الخاصة مهما نجم عن استعماله لسيطرته هذه على سلوكه الخاص من مضاعفات ونتائج ما لم تصطدم بسيطرة الآخرين على سلوكه."(٣٥).

عيوبها:

بيّن السيد الشهيد عيبين رئيسين لهذا النظام:

أحدهما: أنه نظام مادي خالص لا يعير للبُعد القيمي أية أهمية ناظرٌ لجانب المنفعة من حياة الإنسان فقط.

الآخر: مع قبول الفكر المادي الخالص فإنه يجب على أصحاب هذا الفكر تقديم فهمٍ فلسفي كامل للحياة وفق هذا الفكر، قال ﷺ: "ومن الواضح أن هذا النظام الاجتماعي نظام مادي خالص، أخذ فيه الإنسان منفصلا عن مبدئه وآخرته، محدودا بالجانب النفعي

من حياته المادية..... ولكن هذا النظام في نفس الوقت الذي كان مشبعا بالروح المادية الطاغية لم يبنَ على فلسفةٍ ماديةٍ للحياة وعلى دراسةٍ مفصّلةٍ لها."[٣٦].

توضيح ذلك: إن المسألة الاجتماعية - إلى جانب المسألة الاقتصادية والسياسية الخ - جزء من منظومة متكاملة تشكل بمجموعها الحياة الإنسانية فإذا قبلنا تفسيراً للمسألة الاجتماعية على أساس معيّن كالفكر المادي مثلا فلا بد أن يضمن ذلك الفكر تفسيراً عاماً للحياة بجميع أبعادها، يقول ﷺ:" فإن المسألة الاجتماعية للحياة تتصل بواقع الحياة ولا تتبلور في شكل صحيح إلاّ إذا أقيمت على قاعدةٍ مركزية تشرح الحياة وواقعها وحدودها، والنظام الرأسمالي يفقد هذه القاعدة...."[٣٧].

أسباب نشوء النظام الرأسمالي:

يلخص السيد الشهيد هذه الأسباب بما يلي:

١- التأثر بالعقلية التجريبية التي شاعت منذ بداية الانقلاب الصناعي.

٢- التأثر بروح الشك والتبلبل الفكري الذي أحدثه انقلاب الرأي في طائفة من الأفكار كانت تُعد من أوضح الحقائق وأكثرها صحةً كالإيمان بأن الأرض مركز العالم.

٣- التأثر بروح التمرد والسخط على الدين المزعوم (الذي تمثله الكنيسة) الذي كان يجمّد الأفكار والعقول ويتملق للظلم والجبروت وينتصر للفساد الاجتماعي في كل معركة يخوضها مع الضعفاء والمضطهدين[٣٨].

نتائج الرأسمالية:

١- تحكم الأكثرية في الأقلية فإن القوانين ستشرّع لصالح الأكثرية مع الإجحاف بالأقلية لأنه نظام مادي نفعي خالص.

٢- بروز الطبقية في المجتمع طبقة ثرية وطبقة مسحوقة.

٣- بسبب التضخم الاقتصادي ستلجأ الطبقة الثرية للتفكير بمناطق جديدة للمواد الأولية والتسويق مما يؤدي لظهور الاستعمار العسكري[٣٩].

الاشتراكية: ماهيتها، ضمانات صحة النظام، دليل خطأ الماركسية.

ماهيتها:

"ترى الماركسية أن الإنسان يتكيف روحيا وفكريا وفقا لطريقة الإنتاج ونوعية قوى الإنتاج فهو بصورة مستقلة عنها لا يمكنه أن يفكر تفكيرا اجتماعيا "[٤٠].

وترى أن استمرار صراع الطبقات داخل المجتمع الواحد واستمراره بين المجتمعات دليل على أن البشرية لم تصل إلى كمالها المنشود وهو بزعمها الاشتراكية، وهذا الصراع هو الطريق لتكامل البشر أفراداً ومجتمعات، فكل الأنظمة من فترة المشاع مروراً بعصر الزراعة وصولاً إلى الثورة الصناعية كل هذه الأنظمة تحمل تناقضاتها داخلها وهكذا يستمر الصراع حتى تكون الإنسانية كلها طبقة واحدة[٤١].

صحة النظام بنظر الماركسية: إن الضمان الوحيد بيد الماركسية هو حركة التاريخ لأنها تفسره تفسيرا ديناميكيا فالخطوة الجديدة لا بد أن تكون هي الصحيحة فالجديد هو الصحيح، قال السيد الشهيد:" وأما الضمانات التي تكفل للإنسانية صوابها وصحة إدراكها ونجاحها في تصورها للنظام الأصلح فهي تتمثل في حركة التاريخ السائرة إلى الأمام دوما. فما دام التاريخ في رأي الماركسية يتسلق الهرم ويزحف بصورة تصاعدية دائما فلا بد أن يكون الإدراك الاجتماعي الجديد للنظام الأصلح هو الإدراك الصحيح."[٤٢].

دليل خطأ الماركسية:

من أوضح الأدلة على خطأ الفكر الماركسي هو ظهور هذا الفكر في فترات زمنية مختلفة كما في كلام إفلاطون في المدينة الفاضلة وعند (وو- دِي ١٤٠ -١٨٧ ق م) وعند وانج مانج، فهو يدل على خطأ القاعدة التي فرضتها الفلسفة الديالكتيكية من أن النظام أي نظام لا بد أن يأتي بسبب الصراع بين المتناقضات من حقبة إلى حقبة ولا يمكن أن يحصل قبل ذلك، قال ﷺ:" فهل يمكن أن يكون (وو - دي) أو وانج مانج قد استوحيا إدراكهما الاجتماعي ونهجهما السياسي هذا من قوى البخار أو قوى الكهرباء أو الذرة التي تعتبرها الماركسية أساسا للتفكير الاشتراكي"[٤٣].

الجهة الثانية: الحل الإسلامي للمشكلة الاجتماعية:

إن الحل الذي جاء به الإسلام هو الإبقاء على حق الفرد بالملكية الخاصة - وهو

ما يبقي على دافعية الفرد على العمل - ولكن وفق ضوابط دينية تضمن الحفاظ على الجانب الروحي والمعنوي لدى الإنسان والمجتمع، قال السيد الشهيد:" أن الدين يوحد بين المقياس الفطري للعمل - وهو حب الذات - والمقياس الذي ينبغي أن يقام للعمل والحياة ليضمن السعادة و الرفاه والعدالة "(٤٤).

أما كيفية هذا التوفيق فيقول ﷺ:" تتخذ العملية أسلوبين:

الأسلوب الأول: هو تركيز التفسير الواقعي للحياة وإشاعة فهمها في لونها الصحيح كمقدمة تمهيدية إلى حياة أخروية يكسب الإنسان فيها من السعادة على مقدار ما يسعى في حياته المحدودة هذه في سبيل تحصيل رضا الله.....

الأسلوب الثاني: التعهد بتربية أخلاقية خاصة تعني بتغذية الإنسان روحيا وتنمية العواطف الإنسانية والمشاعر الخلقية فيه "(٤٥).

ثم يذكر السيد الشهيد الميزة الأساسية للإسلام على غيره من الأنظمة هذه الميزة التي جعلته يتلافى تلك العواقب الوخيمة لتلك الأنظمة وهي كما يقول ﷺ:

"فالميزة الأساسية للنظام الإسلامي تتمثل في ما يرتكز عليه من فهم معنوي للحياة وإحساس خلقي بها، والخط العريض في هذا النظام هو: اعتبار الفرد والمجتمع معا وتأمين الحياة الفردية والاجتماعية بشكل متوازن. فليس الفرد هو القاعدة المركزية في التشريع والحكم، وليس الكائن الاجتماعي الكبير هو الشيء الوحيد الذي تنظر إليه الدولة وتشرع لحسابه."(٤٦).

خاتمة:

والنتيجة التي ننتهي إليها هي أن الرؤية الإسلامية لبناء المجتمع تكون قد اجتازت نقاط الخلل التي وقعت بها المدرسة الليبرالية والمدرسة الاشتراكية.

فقد ركزت المدرسة الليبرالية على الفرد واعتبرته مركز اهتمام المشرع فصار وفق نظرها منطلق التشريعات فصيغت الأسس الاجتماعية والاقتصادية بل والسياسية من خلال ما يعتقد أنه من مصلحة الفرد.

بينما اتجهت الاشتراكية إلى نقطة النقيض من ذلك فاعتبرت أن الأساس في بناء المنظومة

المجتمعية هو الأمة، ولا يحصل الفرد من المنظور التشريعي والقيمي إلا وهو فانٍ في جسد الأمة غير متميز بحده الفردي.

إلا أن الإسلام أعطى لكل من هذين الركنين (الفرد والأمة) مساحته وأهميته من التأثير البناء التشريعي للمجتمع.

فحتى يكون البناء المجتمعي متماسكاً فلا بد أن تكون التشريعات وملاكاتها متوازنة في نظر المشرع.

ومن هذه الزاوية بالذات كانت نظرة الإسلام أكثر عمقاً ودقةً في صياغة البناء الاجتماعي والذي يتناسب مع الفطرة الإنسانية في حكمها بالحق في الملكية الخاصة خلافاً للمذهب الاشتراكي، مع عدم الإفراط في هذا الحق مما يهدد البناء المجتمعي - سلوكاً واقتصاداً - خلافاً للمذهب الليبرالي الرأسمالي.

هوامش البحث

(١) الذاريات ٥٦.

(٢) الطوسي ،محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، ط١ ١٤٣٠هـ، ج٩، ص٦٣٥.

(٣) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ١٤١٥هـ -١٩٩٥م، ج٩، ص٢٦٩.

(٤) الطبأطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط١، مطبعة ثامن الحجج ، ج١٨، ص٣٤٢.

❖ جملة (والعبادة غرضا متوسطا) وردت هكذا في المصدر ولا يصح إلا بتقدير ناصب وإلا فهو سهوٌ.

(٥) الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان ط١ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ج١٧، ص١٠١.

(٦) المصدر السابق، ص١٠١.

(٧) الصدر، محمد محمد صادق ،تاريخ ما بعد الظهور، مؤسسة دار الهدى، ط١، ص٩٥.

(٨) القيامة ١٤.

(٩) الحائري، كاظم، مباحث الأصول، تقريرا لأبحاث سماحة آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر، ط٢، مطبعة دار البشير، ج١، من القسم الثاني، ص٥١ وما بعدها.

(١٠) الهاشمي، محمود، بحوث في علم الأصول، تقريرات السيد الشهيد، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، ط٣، مطبعة فروردين، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ج١، ص٧ وما بعدها.
(١١) الحسن، نزيه ،دار التعارف للمطبوعات ،بيروت لبنان ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م،ص٥٩ وما بعدها.
(١٢) الميلاد، زكي، محمد باقر الصدر سمو الذات وخلود العطاء، ص٢٩.
(١٣) النعماني ،محمد رضا ،شهيد الأمة وشاهدها ،المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ﷺ، ط١، ١٤٢١هـ، القسم الأول، ص٥٢.
(١٤) المصدر نفسه، ص٥٣.
(١٥) المصدر نفسه.
❖ عبارة (فلا) يناسبها التفصيل بعدها وهو غير موجود في المصدر.
(١٦) المصدر نفسه.
(١٧) المصدر السابق.
(١٨) المصدر نفسه ص٦٠.
(١٩) المصدر نفسه ص٦٨.
(٢٠) مجدي عزيز إبراهيم ، معجم مصطلحات ومفاهيم التعليم والتعلّم، ط١، القاهرة عالم الكتب ١٠٠٩، حرف العين ص٧٢٢.
(٢١) شهيد الأمة وشاهدها القسم الأول، ص٤٨.
(٢٢) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، مؤسسة الثقلين، ص٢٩.
(٢٣) المدرسة القرآنية، ص٢٩.
(٢٤) المصدر نفسه، ص٣٩.
(٢٥) المصدر نفسه، ص٤١.
(٢٦) الصدر ،محمد باقر ، رسالتنا والمدرسة الإسلامية ،ط٢ ،مطبعة المعارف ،١٤٢٥هـ ص٢١.
(٢٧) المصدر نفسه.
(٢٨) المصدر السابق ،ص٢٢.
(٢٩) المصدر نفسه ،ص٢٣.
(٣٠) المصدر نفسه.
❖ الظاهر أنه يعني مجلة الأضواء التي كان السيد الشهيد ينشر فيها.
❖❖ في المصدر (تدعو) والظاهر أن الصحيح ما أثبتناه.
(٣١) المصدر السابق.
(٣٢) المصدر نفسه ص٥٦.
(٣٣) المصدر السابق.
(٣٤) رسالتنا والمدرسة الإسلامية، ص٩١.

❖ الظاهر أن المقصود (انتهاج).
(٣٥) المصدر السابق.
(٣٦) المصدر نفسه ، ص٩٦.
(٣٧) المصدر السابق ص٩٧.
(٣٨) المصدر نفسه.
(٣٩) المصدر السابق ص١٠١
(٤٠) المصدر نفسه ص٦٥.
(٤١) ينظر المصدر نفسه ص١٢٠ بتصرف واختصار.
(٤٢) المصدر السابق ص٦٦.
(٤٣) المصدر نفسه ص٧٠.
(٤٤) المصدر نفسه ص١٤١.
(٤٥) المصدر نفسه ص١٤٤.
(٤٦) المصدر نفسه ص١٤٦.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

٢- الحائري، كاظم، مباحث الأصول، تقريرا لأبحاث سماحة آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر، ط٢، مطبعة دار البشير، ج١ من القسم الثاني.

٣- الحسن، نزيه، دار التعارف للمطبوعات، بيروت لبنان ١٤١٣هـ -١٩٩٢م.

٤- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان ط١ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥- الصدر، محمد باقر، رسالتنا والمدرسة الإسلامية، ط٢، مطبعة المعارف، ١٤٢٥هـ .

٦- الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، مؤسسة الثقلين.

٧- الصدر، محمد محمد صادق، تاريخ ما بعد الظهور، مؤسسة دار الهدى، ط١.

٨- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط١، مطبعة ثامن الحجج .

٩- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ١٤١٥هـ -١٩٩٥م.

١٠- الطوسي، محمد بن الحسن ،التبيان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، ط١، ١٤٣٠هـ.

١١- مجدي عزيز إبراهيم ، معجم مصطلحات ومفاهيم التعليم والتعلّم، ط١، القاهرة عالم الكتب.

١٢- الميلاد، زكي، محمد باقر الصدر سمو الذات وخلود العطاء.

١٣- النعماني، محمد رضا، شهيد الأمة وشاهدها، المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر ﷺ، ط١، ١٤٢١هـ.

١٤- الهاشمي، محمود، بحوث في علم الأصول، تقريرات السيد الشهيد، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، ط٣، مطبعة فروردين، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .